

## موقف الأزهر من حملة فريزر على مصر

فى سنة ١٨٠٧ أبحرت حملة بريطانية من صقلية غازية إلى مصر. وكانت التعليمات المعطاة لقائد الحملة الاقتصار على احتلال الإسكندرية، كوسيلة للضغط على الدولة العثمانية لتحجيم علاقتها بفرنسا. ووجه القائد فريزر إعلاناً إلى حاكم الإسكندرية وسكانها، يقول فيه «إن البريطاني لم يأتوا لاحتلال مصر، وإنما لمنع الفرنسيين من احتلالها، ولحماية بعض الطوائف التى ترغب فى علاقات طيبة مع بريطانيا. ولهذا فإنهم لن يتجاوزوا احتلال ميناء الإسكندرية وقلاعها ومدينتها؛ وسلمها جميعاً لهم بدون مقاومة حاكمها أمين أغا لقاء رشوة، غلفتها شروط هزيلة. وكان هذا النجاح السريع إلى اعتماد الإسكندرية فى تمويلها على رشيد دافعاً لقتنصل بريطانيا إلى أن يطلب إلى فريزر مد حملته إلى رشيد، وإلا عرض حملته وسكان الإسكندرية لخطر المجاعة.

كانت القوة العسكرية التى اتجهت إلى رشيد تتألف من ألفى جندى من أصل خمسة آلاف هم قوام الحملة كلها، وكانت حامية رشيد نحو خمسمائة جندى مسلحين تسليحاً رديئاً، وفى حال معنوية متدنية، لكن حاكم رشيد على بك السلانكللى قرر المقاومة. ولما انتهت القوة إلى مرتفعات أبى منصور لم تلق أدنى إشارة إلى احتمال المقاومة، لكن بمجرد دخولها إلى المدينة أعطى على بك إشارة البدء لإطلاق النيران، فتساقط البريطانيان صرعى فى الشوارع. وفيهم قائد القوة الجنرال ووكوب، وبلغ عدد القتلى نحو مائتين، والجرحى مائة وخمسين والأسرى مائة. أما خسائر

الحامية العثمانية فبلغت أربعين قتيلًا وحوالي مائة جريح. وأرسل فريزر تقريره إلى وزير الحربية الإنجليزي، يقترح فيه أن تجلو انجلترا عن مصر، وينحى باللائمة على قنصل بريطانيا ميست الذي يقول إن العالم سيعتريه الدهشة حين ينتهي إليه أن مدينة مثل رشيد قد استعصت على جيش أوروبي حديث!

أما علماء الأزهر وفي الطليعة منهم السيد عمر مكرم، فتدخلوا بصورة فعالة في اليوم الذي وصلت فيه إلى القاهرة الشحنة الأولى من رءوس القنلى فى معركة رشيد. وكان ذلك فى ٥ أبريل ١٨٠٧. وتولى عمر مكرم قيادة المقاومة الشعبية، فطلب إلى الجماهير التأهب لقتال الإنجليز، وأمر بتعطيل الدراسة فى الأزهر حتى يتفرغ علماءه وطلابه لصد الغزاة.

أما كاشف دمنهور فكان متخاذلاً هو وعساكره، بل إنه حال بين سكان دمنهور وبين استخدام أسلحة الحامية وذخيرتها فى الدفاع عن المدينة!! أما الجنود العثمانيون فقد استولى عليهم الفزع، وانتوى أكثرهم الفرار إلى الشام، وقنع بعضهم بالهروب إلى دمنهور، وكان لهم فيها تصرفات مخزية!

أما كبار العثمانيين فقد قرروا إبلاغ محمد على بأنباء الحملة، وأن عليه أن يرجع هو وعساكره إلى القاهرة؛ فهذا موقف أخطر كثيراً من تمرد المماليك القبالي، أما هو فقد «داخله وهم كبير، وارتيك فى أمره، وانحلت عزائم» كما يقول الجبرتسى، وانتوى أن يتجه إلى الشام، فيكون غيابة عن القاهرة عذراً له عند الباب العالى من عدم محاربة الإنجليز؛ لكنه عدل عن رأيه، وبعث إلى العثمانيين بعزمه على الرجوع، وأن العساكر يطالبونه بالعلائف، ويأمرهم بتحصيلها وتسليمها له، وأن يتجهزوا لمحاربة

الإنجليز. وكان بالقاهرة قوة محدودة من الجنود الأرنأؤود، فعاثوا فيها فساداً واستباحوا أموال المصريين، وجاسوا خلال الديار والأسواق يفتصبون كل ما يصادفهم.

وعقد اجتماع فى بيت القاضى العثمانى حضره جمع من كبار العلماء فى مقدمتهم الشيخان عمر مكرم وعبد الله الشرقاوى، وكان محمد على قد ألقى قرار تحديد إقامته، وحضره بعض الضباط الألبان، وطلب عمر مكرم أن يكف الجنود العثمانيون عن أعمال السلب والنهب، وأن يلتفتوا إلى عدو الدين وناقشوا تحصين القاهرة وحفر خندق يقى القاهرة عادية الانجليز.

ويقول الجبرتى إن قنصل فرنسا دروفتى هو الذى أشار بالخندق. وذهب معهم لترتيب الحفر وأرسل حاكم رشيد على بك وأحمد بك الخازندار يطلبان النجدة من القاهرة، فقد رجح عندهما أن الإنجليز سيعاودون الكرة. فبادر المشايخ بإرسال عدة من المقاتلين، ثم كتبوا إلى سائر البلدان والعربان بالبحيرة يدعونهم للجهاد. وحدث ما توقعاه، وبعث نقيب الأشراف برشيد إلى عمر مكرم يخبره بعود الإنجليز، ويطلب الإمداد، فقرأ السيد عمر مكرم الخطاب على الناس، وحثهم على الجهاد، فامتثلوا وتزودوا بالسلاح. وركب عمر مكرم إلى نائب محمد على. وكان مازال بالصعيد يطارد المماليك القبالي !! - يستأذنه فى السفر إلى رشيد، فرفض وقال: «حتى يأتى أفندينا ويرى رأيه فى ذلك». ووردت رسالة أخرى من حاكم رشيد وأحمد الخازندار بأن الإنجليز ملكوا أيضاً كوم الأفرح وأبا منصور، ويستعجلون المدد. وعاد محمد على يوم ١١ أبريل وذهب إليه عمر مكرم وكبار المشايخ ورجال الحكومة للسلام عليه، واستئذانه فى السفر للجهاد، لكن صدمهم بقولة مهينة: «ليس على رعية البلد خروج، وإنما عليهم المساعدة بالمال

لعلائف العسكرا! .. وبعث إلى السيد عمر مكرم بعد أن انفض المجلس يلزمه بتحصيل خمسة آلاف جنيه لتغطية نفقات الجند الذين يعتزم إرسالهم إلى رشيد!

وبعث حسن كريت من رشيد برسالة في ١١ أبريل تلقاها عمر مكرم والمشايخ في ١٤ أبريل يخبرهم بأن الإنجليز متعلقون حول الثغر ويضربونه بالمدافع ، وأبلغ السيد عمر محمد على بمضمون الرسالة ، فأمر بإرسال جند كثير إلى رشيد، لكنهم لم يجاوزوا ضواحي القاهرة، وعادوا إليها، وارتكب بعضهم قبل عودتهم أشد الآثام والفواحش، فقد أكلوا مزروعات الفلاحين، وخطفوا مواشيهم، واعتدوا على نساءهم! وكان هؤلاء الجنود من جنود محمد على بالمنيا. واضطر للبقاء بالقاهرة خوفاً من اتساع فضائهم، وهم يطالبون برواتبهم المتأخرة! ثم اعتمد على قوات أخرى أحسن نظاماً وتسليحاً. وبذل محمد على مع قنصل فرنسا دروفتي جهوداً وافرة لتحسين القاهرة، ومعهما جماهير الشعب التي استنفرها السيد عمر مكرم وعلماء الأزهر. وفي نفس الوقت طلب محمد على إلى السيد عمر وعلماء الأزهر التوسط لدى الأمراء المماليك يستحثونهم على الإسراع إلى القاهرة لإبرام الصلح النهائي، لكن هؤلاء عمدوا إلى التسوية حتى ينجلى الموقف!

وكان لزاماً على الإنجليز معاودة الكرة للاستيلاء على رشيد، حفاظاً على سمعتهم الحربية، وحتى لا ينصرف عنهم المماليك ويتبدد أملهم في طرد محمد على، وأعد فريزر قوة أخرى تحركت من الإسكندرية بقيادة الجنرال وليم ستيوارت، فاحتلت أولاً قرية الحماد ثم مرتفعات أبي منصور وقصفت «رشيد» بالمدافع اثني عشر يوماً، وانتظر ستيوارت بفرسان المماليك، لكنهم ما لبثوا يتربصون! وجاءت حملة محمد على وقوامها ١٥٠٠ فارس، ٥٠٠

رجل، كما جاءت نجدات المتطوعين من دمنهور وما حولها. ووقع الصدام في ٢٥ أبريل واستمر يومين ودارت الدائرة على الإنجليز، وبلغت خسائرهم ٤١٦ قتيلًا، ٤٠٠ أسير. وتراجع القائد بقواته إلى أبى قير واستقل السفن إلى الإسكندرية. ولا مرية أن هذه الروح العالية التسي قاتل بها المصريون مردها إلى قوله عمر مكرم: «إن هذه الحرب حرب دينية ضد أعداء الدين والملة...». لكن العثمانيين لم يعترفوا للمصريين بالفضل، فبعث السلطان بهدايا لمحمد على وكبار العسكر، ونياشين للعسكر، أما عمر مكرم والعلماء فلم يكن لهم نصيب منها!!

ومن أسف أنه في أعقاب معركة الحماد انتشر الجنود الأرنؤود والدلاة في البلدة واستباحوا أموالها ونساءها وماشييتها، زاعمين أنها قد أصبحت دار حرب!!! ثم انتقلوا إلى رشيد وقرضوا الإتاوات على أهلها، وصادروا محصول الأرز، وخرج أهل رشيد وتركوا البلدة لهم!! وكتبوا إلى عمر مكرم يطلبون إليه السعى لإيقاف السلب والنهب!

وأراد محمد على الزحف إلى الإسكندرية لاستخلاصها من الإنجليز، لكنه أراد الصلح أولاً مع المماليك مخافة أن يزحفوا إلى القاهرة!! وكانوا وصلوا إلى بنى سويف. وطلب محمد على إلى قنصل فرنسا العام التدخل رسمياً، لكن المماليك طلبوا وفداً يتكون من الشيوخ: عبد الله الشرقاوى ومحمد الأمير وعمر مكرم، فبعث إليهم محمد على بوفد من المشايخ: سليمان الفيومي، وإبراهيم السجيني، محمد الدواخلى، وأعطاهم صلاحيات كاملة، لكن الصلح لم يتم لاختلاف المماليك فيما بينهم وتحاسدهم وكرهتهم الزائدة لمحمد على، ولشروط تمسكوا بها.

وعندما انتوى محمد على التحرك إلى الإسكندرية فرض على التجار عشرة آلاف جنيه، على سبيل الاقتراض! كما أمر بتزويد الحملة بمطالبيها من دواب وقرب الماء والمواد التموينية وما إليها، وكانت وسائله بالغة التعسف في تحصيل ما أراد، كما فرض الضرائب العينية، واقتحم جنوده الأرنساؤود والدلاة البيوت وانتهكوا الحرمات وأخرجوا أهلها. وتشفع عمر مكرم في الناس عند الباشا بعد ما التجأوا إليه، فرفع عنهم غراماتهم، وكتب لهم أماناً.

وقدم وفد بريطاني إلى محمد على يوم ١٠ أغسطس ووقع اتفاق الجلاء بالقرب من دمنهور، وكان أساس الاتفاق جلاء الإنجليز مقابل إطلاق سراح الأسرى البريطان، مع شروط. آخر وتم جلاء آخر جندي بريطاني عن الإسكندرية في ١٩ سبتمبر ١٨٠٧.

